ثمن الشهامة

استقل "الأتوبيس" كعادته كل يوم، لم يكن يفضِّل تلك المواصلات المزدحمة لكن "آدي الله وآدي حكمته!"...

كان ثمن الترقية وزيادة المرتب أن ينتقل إلى مقرٍّ عملٍ ناءٍ يقع على أطراف العاصمة، كان "الأتوبيس" هو المواصلة الوحيدة المتاحة أمامه...

كان يركبه من أول الخط وكان ذلك يتيح له فرصةَ اقتناص مقعد يضمن له النجاة من الزحام الشديد طوال الرحلة التي تكسر حاجز الساعة من عمر الزمن...

انتظر بين جموع الناس "الأتوبيس" رقم (...) وما إن جاءت البشرى بقدومه حتى تدافعت جموع الناس التي طال بهم الشوق! تقتحمه... اختلطت عبر أبوابه أفواجٌ من الصاعدين والهابطين... وبعد جهد جهيد نجح أخيرًا في اختراق باب الحافلة، وارتمى على المقعد الذي لم يجد سواه خاليًا...

كانت أشعة الشمس قد ألهبت سطحه الجلدي فصار نارًا تلظَّى...

ارتمى عليه جالسًا وليتحمَّل أذاه لحظات حتى يكتسب درجة حرارة جسمه... كان قد اعتاد من تجربته الطويلة مع رحلة العمل - التي تقارب

في طول مدتها السفر- على النوم بمجرد أن يُسلِمَ جسده للمقعد... يفرُّ بالنوم أحيانًا من بعض المواقف التي قد تسبب له الحرج... فتاة جميلة يحظى بنظرة إعجاب من عينيها تُقَيِّمُ بها شهامته، أو يتحاشى منها نظرة لائمة تستعيض بها عن قولها: "انتَ ما عندكش إخوات بنات؟!"

أو يصادف رجلًا مسنًّا... امرأةً حامل... وغيرها من المواقف التي تستفزُّ شهامته فيلبِّي نداء الواجب، لكنَّه أحيانًا قد يكون في غنى عن هذه الشهامة إن كانت ستجلب له المشكلات... ومنها تلك المشكلة التي وقع فيها ذات مرة...

فبينا هو جالس على مقعدٍ بعيدٍ عن النافذة إذ به يفيق من غفوة قصيرة اختلسها على ضجيج، واحتكاكات، ومشاجرات... على يساره مباشرةً كانت تقف امرأة ثرثارة "تخانق دبان وشها"... "تشاكل طوب الأرض"...

تطلق لسانها على هذا وذاك... تشتكي زمنًا ماتت فيه النخوة، وضاعت الرجولة لتُترَك النساءُ يزاحمهن الرجالُ...

أحسَّ بأن الكلام موجَّه إليه ولن يستطع أن يهرب بنومٍ، أو تشاغل، أو حتى ادعاء التعب... لن تُستسَاغ حجة امتلاء ممر الحافلة بالنساء وخوفك أن ينتقض وضوؤك!

فقام من مقامه ليفسح لها مكانه بالجلوس... لم تتردد المرأة فاقتنصت الفرصة بغير تردد... وبغير كلمة شكرٍ واحدةٍ... افترشت بجسدها الضخم المقعد لتجور على جارها في المقعد وتحذِّر كل من تسوِّل له نفسه أن يقترب منها، أو يسوقه حظُّه العاثر إلى الوقوف بجانب مقعدها...

تراجع صاحبنا بعض الشيء عن موضع قدميه بجوار كرسيِّه الذي فقده بسيف الحياء... ورسم على شفتيه ابتسامةً مصطنعة، عملًا بالمثل القائل: "إن جالك الغصب خده بالرضا!"...

ويُشكر طبعًا على هذا الموقف الذي يحمل له كلَّ الاحترامِ على نخوته وشهامته، لكنَّ هذا لم يكن رأي جميع الموجودين الذين عزَّ عليهم أن يكونوا مجرد متفرجين لا مشاركين - وأقصد طبعًا جموع الوقوف من الجنس اللطيف – فقد تحركت في نفوس الكثيرات منهن الغيرة، والحنق على ذلك الرجل سيِيء التقدير... كلٌّ منهن كانت ترى نفسها أهلًا لهذا المعروف وأحقُّ بالراحة من المرأة كثيرة الكلام و"الشَّكَل" التي أجهدتهم به وهي منهكة من الوقوف، فكيف الحال إذا جلست واستراحت؟! ستستجير منها الدنيا كلُّها، ولا شك!

ولم تخيِّب هذه المرأة ظنَّهن... فعلى الرغم من المساحة الكبيرة التي تشغلها إلا أنها بدت ساخطة متذمِّرة مِنْ كلِّ مَنْ ساقه حظُّه العاثر في

طريقها... الذي يجاورها في المقعد، أو يقف بجوارها، أو يمسك بحافة الكرسي الذي تجلس عليه أو يتقدَّمه...

والرجال في مثل تلك المواقف غالبًا ما يتذرَّعون بالصمت وكظم الغيظ، فمن ذا الذي يستطيع أن يجاري امرأةً في نقاش في الأماكن المزدحمة والمغلقة... ولا يقدر على القوي إلَّا الأقوى منه! والمرأة لا يقدر عليها إلَّا امرأة مثلها!

بدأت مشاجرة بنظرة صبَّتها إحدى الواقفات على المرأة الجالسة الفائزة بالمقعد، تلتها بمصمصة الشفايف في حركة لا إرادية لم تستطع كتمانها... فانفجرت فيها الجالسة مباشرة بجرأةٍ وبغير تمهيدٍ كالمدفع... وطبعًا جاءت رِجْلُ صاحبنا في الكلام:

- أيوه... انتِ متغاظة علشان قعَّدني وسابك واقفة! راجل عنده نظر!

حرَّكت كلماتُها الغيرةَ في صدر المرأة الواقفة فانفجرت فيها تضرب بلسانها هنا وهناك وقد نال صاحبنا من أذاها ما ناله:

- هوَ لو كان عنده نظر كان سابني وقعَّدك!

انفجرت هذه السبَّة في وجهه فابتلعها متألمًا ولامها بأدبٍ:

- إيه يا ست انتِ! هي دي جزاتي؟!

وجدت المرأة الثرثارة بغيتها وقد أخذ الحديث هذا الاتجاه المحبب إليها... فشمَّرت عن لسانها و"طاحت في الكل":

- طبعًا عنده نظر... مش زي الأفندية اللي قاعدين عاملين لي رجالة...

وتحوَّلت المشكلة "بقدرة قادر" من أزمة شخصية بين امرأتين تحكمهما فيها دوافع الغيرة إلى أزمة عامة... رجالة وستات... هذا ظالم وهذه مظلومة... وذاك مظلوم وتلك ظالمة...

ظلَّت الأمور في تأزُّم واشتعال حتى وصل "الأتوبيس" إلى محطته، فتحرَّك في صعوبة نحو بابه فخاطبه أحدُ الركاب قائلًا:

- انتَ السبب... انتَ اللي عملت لنا المشاكل دي كلها... ربنا يسامحك... يا عم كنت سبتها واقفة! صعبانة عليك أوي!

لم يجد شيئًا من لغة الكلام يجبه بها...

اكتفى بتلك الدهشة التي ارتسمت على وجهه وانعقد لها حاجباه...

لم يشغل نفسه باللوم على ما فعل من معروفٍ في غير أهله وما تسبب له من حرج وإهانة... المهم أنَّه وصل... وعلى قدر المشقة تأتي الراحة... وقد أحسَّ أن الوقت مرَّ عليه أسرع بتلك التسلية المجانية!

أما "الأتوبيس" فقد خلا من أكثر ركابه لتجد المرأة الثرثارة نفسها فجأة في قلَّةٍ من الركاب... لا تجد من تناكفه...

فرمل "الأتوبيس" فجأة وإذ بها تخاطب السائق في جرأة:

- يا عم حاسب! انتَ إيه أعمى؟!

تجاهل السائق ما سمعه وتحدَّث في اقتضاب وتأفف موجهًا حديثه إلى الركاب عامة:

- حمد لله على السلامة!

وأكمل حديثه في تنهد اللاهث "المقطوع نفسه من الجري":

- أخيرًا "الأتوبيس" وصل بالسلامة!

لم يدرِ وهو ينبس بكلمة "السلامة"... إن كان يقصد الرحلة أم النجاة من لسانها؟!

*****